تاريخ الاستلام: 2022/09/13 تاريخ القبول: 2022/10/31 تاريخ النشر: 2022/12/31

شريـــفة بوكـــــاف [1] *
جـــامعة العـــربي التبســـي- تبســـة (الجزائر)
مخبـــر الدراســـات الانسانيـــة والأدبيـــة
Email : boukef.cherifa@univ-tebessa.dz
عـــــلاوة ناصـــري [2]
جـــامعة العـــربي التبســـي- تبســـة (الجزائر)
مخبـــر الدراســـات الانسانيـــة والأدبيـــة
Email : allaoua.nasri@univ-tebessa.dz

مجلة البحوث والدراسات الإنسانية المجلد 16/ العـدد 02 -السنة 2022 ص ص 201-226
EISSN : 2588-2317 ISSN : 1112-8151

الملخص:

تَشْغُل الإيدْيُولوجيا حَيّزا هامًا في الدّرَاسَات والنّقْدية الحَدِيثة، فَقد بَاتَت مَحلّ اهْتِمَام الدّارِسين فَعَمَدُوا فِيهَا إلَى مُحَاولة اسْتِشْفَاف مَوَاقف المبْدع مِنَ الحَيَاة ورُؤيته اتجَاه الوَاقع، بِمَا يَعْتَرِيه مِنْ تَغَيُّرات وتَحَوّلات عَلى جَمِيع المسْتَويات، ونَظرًا لأنَّ الرّوَاية هِي الوِعَاء الحَاوِي للأفْكَار والرُّؤى النَّابِعَة عَن المؤلّف فتَكُون بِذَلك نِتَاج لإيدْيُولوجيّة مَا، يَودُّ هُوَ بَثّها في مُجْتَمَعِه، لِنْقده أوْ التّغْيير فِيه.

وَقَدْ وقع الاخْتِيار عَلَى رِوَاية " إبْرَاهِيم سَعْدِي" لِمُقَارَبَتهَا واسْتِكْنَاه مَكْنُونَاتِها، ودِرَاسَة الرؤ

الكلمات المفتاحية: الإيدْيُولوجيا، الروَاية كإيدْيُولوجيا، إيدْيُولوجيا المؤلّف، الآدَميّون.

Abstract:

Ideology occupies an important place in modern criticism studies where it became the focus of the researchers', so they seek to discern the positions of the creator from life and reality, including the changes and transformations that he would undergoes on all levels. And since the novel is the container that includes the ideas and visions emanating from the writer, thus, it is the product of ideology, which he would like to broadcast it in the community to criticize it. I chose "Ibrahim Saadi's" novel to approach it and dive into its intents, and study the narrative vision by tracing the extent of the novelist's ideology in it, and his position, his vision, and his justification for it.

To conclude that the narration of (The Human Beings) is a tragic narrative text, where the writer puts hope in it and aspires to build a utopian virtual world.

Keywords: *ideology- the novel as an ideology- the writer's ideology- the human beings.*

* المؤلف المرسل: شريفة بوكاف

المقدمة

فِي مُسْتَهلّ الحَدِيث عَنْ إيدْيُولوجيا الكَاتِب، كَانَ لَابُد مِنَ الإشَارَة إلَى أنَّ الإيدْيُولوجيا هِيَ مَجْمُوعة مِنَ القِيَم والأفْكَار، النَّابِعَة مِنْ أفْرَاد وجَمَاعاتٍ أوْ سُلْطَة مُعَيّنة، وِفْقًا لمَرْجِعياتٍ فِكْريّة تَخْتَلِفُ بِتَعَدُّد المَشَارِب والثّقَافَات، فَضْلاً عَنْ ذَلِك، فَهِي تتَدَاخَل مَعَ عُلُوم عَدِيدَة، كَالعِلْم، الفَلْسَفة، السّيَاسَة، الدّين والأدَب، وهَذا الأخِير شَدِيد الصّلَة بِهَا، فَالرّوَائِي خُصُوصًا أثْنَاء كِتَابَته لإبْدَاعِه الأدَبيّ، فَإنّه يُنْتِجُه انْطِلاقًا مِنْ رُؤى فِكْريّة مُعيّنة؛ قَدْ تُخَالِف مَا هُو سَائِد فِي السّاحَة، وبِالتّالِي تَنْتَقد الوَاقع والوَضْع القَائِم، كَمَا قَدْ تُوَافِقُه وتَعْمَل لصَالِحه بِتَبَنّيها، فَالإيدْيُولوجيُّ يُحَاول فَرْضَ إيدْيُولوجيَته وأفْكَاره فِي الوَسَط، مِنْ خِلَال عَمَله الإبْدَاعي الأدَبي ليُبْرز رُؤَاه حَوْل قَضيّة مَا.

وعَلَيْه، تَعْني الإيدْيُولوجيا تَحْريف الوَاقِع الاجْتِمَاعي (الاقتِصَادي والسّيَاسي)، أوْ تشْوِيهَه لِخِدْمة المَجْمُوعة المُسيْطرة. ومِنْ ثمَّ تُسَاعد الثّقافَة فِي إعَادة انْتَاج المُجْتَمع بأسَالِيبَ تَحْجِب صُورَته الحَقِيقيّة عَنْ أعْيُن الّذين يَنْتمون إلَيه. وفِيمَا يَخُصّ عَمَليّة الانْتَاج فإنّ الّذين يُنْتِجون الإيدْيُولوجيات ويَنْشُرونها هُم مَجْمُوعة مَعيّنة مِنَ الأفْراد الّذين يَنْتمون إلَى الطّبقة المسَيْطرة فِي المجْتَمع، مِثْل المفكّرين والفَنّانِين والفَلَاسِفة ورِجَال الدّين. فَدَوْرهم هُو انْتاج الإيدْيُولوجيا ونَشْرها لتَتقبّلها وتُمَارسَها القِطَاعَات الأخْرى فِي المجْتَمع. **(ديقيد و جون، 2013،ص42)** فَمَا يقُوم بِه المُبْدِع يُصْبح بِمثَابة دِعَاية لهَذَا التوجّه أوْ هَذه الرُؤية.

والرّواية كَجنْس أدَبِيّ قَادِر علَى احْتِوَاء جُمْلَة القِيَم والمبَادِئ، الّتِي يُحَاول صَاحِبُها أنْ يَبُثّها فِي عَمَلِه الفَنّي مِنْ خِلَال تَعْبِيره عَنْ مَوَاقِفه وَرُؤاه اتجَاه واقِعِه، بِكُلّ أبْعَادِه الاجْتِمَاعِيّة، السّياسِية وحتَّى الإيدْيُولوجيّة، أو قَضِيّة مَا تُؤَرّق كَيَانه.

بِحَيْث لَا يَكَاد عَمَل فَنّي يَخْلُو مِنْ إيدْيُولوجية مُعيّنة بِعَدّه نِتَاج لإيدْيُولوجيّة الكَاتِب، الّذي يَعْمَل علَى فَرْض مَبَادِئه وأفْكَاره فِي مُحِيطِه الاجْتِمَاعِي، مِنْ خِلَال إبْدَاعِه الّذي يَحْمِل رُؤى مُقنّعة، وأفْكَار مُبطّنة عَمَدَ لبثّها فِي ثَنَايا عَمَله، لِسَعْيه لاسْتِبْدَال تِلْك الإيدْيُولوجيّة السّائِدة بأفْكَارِه، وَالوَعْي بِمَا يَحْدُث وفَضْح وتَعْرِية الوَاقع. كَمَا قَدْ يُحَاول بَثّ إيدْيُولوجيا جَمَاعة بِعَيْنِها، كَوْنَه – الكَاتِب – أحَد أفْرَاد هَذَا المُجْتَمَع الّذي يَعِيشُ فِيه ويُؤثّر فِيه ويَتأثّر بِه.

وقَبْلَ الخَوْض فِي مَسْأَلَة إيدْيُولوجيا الكَاتِب كَانَ الأجْدَر بِنَا التّنويه بالرّواية كإيدْيُولوجيا وانْتِقَاء بَعْض المَعَانِي لَهَا، نَظرًا لأنّها تَقْتَرب مِنْ إيدْيُولوجية الرّوائي كَوْنه صَاحِب الإبْدَاع، وقَد كانَ التّركيز مُنْصَبا فِي هَذِه المُقَارَبة مُحَاوَلة تَقَصّي مَوَاقِف ورُؤى الكَاتِب "سَعْدي" فِي رِوَايَته (الآدميّون) مِنْ خلَال رَصْد رُؤْيَته الإيدْيُولوجية بالسّعْي للإجَابَة عَنْ الإشْكَاليّة العَامّة والمُتَمثّلة فِي: مَا مَدَى حُضُور إيدْيُولوجيا الكَاتِب فِي رِوَاية (الآدميون) لـــ" إبْرَاهِيم سَعْدي"؟ لِتَتَفرّع عَنْهَا تَسَاؤُلَات مِنْهَا:

- كَيْفَ تَمَظْهَرت رُؤية الكَاتب "سَعْدي" الإيدْيُولوجية فِي الرّواية؟
- مَا وَرَاءَ هَذَا العِنْوَان(الآدميّون)؟
- وهَلْ تَعْكِسُ هَذِه الرّواية رُؤية الكَاتب الإيدْيُولوجية ومَوْقِفه وتَصَوّرَاتِه الفِكْريّة؟ بِمَعْنَى كَيْف يُفَسّر الرّوائِي ويُوجّه مَسَار الأحْدَاث والعَلَاقَات بَيْن الشّخْصِيَات؟

وانْطِلاقًا مِنْ هَذِه المعْطيَات، فإنّه تَتَراءى لَنَا المقَاربة التّأويليّة كَوْنَها الطّريقة الإجْرَائيّة والآليّة الأنْسَب لتَتَبّع حُضُور إيدْيُولوجيا الكَاتِب فِي رِوَاية (الآدميّون)، ورَصْد مَوَاقِف الكَاتِب "سَعْدي" ورُؤْيته والبَحْث عَن مَعْنى المعْنى، بتَأْوِيل أحْدَاث الرّوَاية ووقَائِعها.

1. الرّوَاية كإيدْيُولوجيا:

يُعدّ العَمَل الإبْدَاعِي الأدَبِي بِنَاءًا فَنّيًا أنْتَجَه صَاحِبه، وعَمَل علَى تَوْظِيف أفْكَاره وتَصَوّراته فيه، سَوَاء أكَانَ ذَلِك بِوَعْي مِنْه أوْ بِغَيْر وَعْي« فالأدَب يُعْتَبر إعَادَة انْتَاج للإيدْيُولوجيا وليْسَ نِتَاجًا لَهَا لأنّهَا مَوْجُودة قَبْله، ولأنّه أحَدُ خِطَابَاتِها، ويَبْدُو الأدِيب كـ "عَامِل" فِي ورْشَة لإنْتَاج " النُّصُوص" يُراكم تَجْربة الأجْيَال السّابِقَة فِي فِكْره وبَيْن يَدَيْه، ويَنْطَلِق مِنْها نَحْو آفَاق جَدِيدَة» **(بن لحسن، الرواية والإيديولوجيا، 2016م، ص55)** ، فالأدِيب عَامّة والرّوائي خَاصّة عِنْد نَسْجِه لعَمَلِه الفَنيّ؛ فَإنّه يَكُون حَامِلًا لإيدْيُولوجية مُعيّنة، كَأنْ يَتَبَنّى مَوْقفًا أوْ قَضِيّة مَا، انْطِلَاقا مِنْ مَخْزُونه الثّقَافِي التّرَاكُمِي حَيْث يَتَجَسّد فِي هَذَا العَمَل. وعَليْه، فَهِي تَعْني « مَجْمُوعة الأفْكَار والقِيَم والممَارسات الّتي تُشَكّل رُؤية شَامِلة للمُجْتَمع والعَلَاقَات السَّائِدة فِيه، وبِذَلك تَقُوم بِوَظِيفة هَامّة فِي مَسَار الحَيَاة المجْتَمَعيّة، كَمَا تَرْسُم الرُؤى والآفَاق لتَطَلُّعَات المجْتَمع» **(حمدي، 2001م، ص7، 8)**؛ أيْ مَنْظُومَة التّصَوّرات والرّؤى الشّامِلة لمجْتَمع مَا ولكُلّ مَا هُو سَائِد فِيه، فَغَالِبًا مَا يُكوّن الانْسَان صُورَة أوْ نَظْرة شَامِلة عَنْ العَلَاقَات فِيه، مَا يَدَخل فِي إطَار الوَظِيفَة الاجْتِمَاعيّة.

وكُلّ فَرْد فِي المُجْتَمع يَمْتلِك قَدْرًا مِنَ الأفْكَار والتّصَوُّرات يُمْكِنه مِنْ خِلَالَها أنْ يُحدّد عَلَاقَته بالآخَرِين، وأنْ يَتَّخِذَ مَوْقِفا مِنَ القَضَايَا الاجْتِمَاعِية والاقْتِصَادية والسّياسِية والثّقافِية ليَتَسِم بالقبُول والإيجَاب أو بِالرّفْض والمعارَضة، مُعَبّرًا عَن الفِكْر الإيدْيُولوجي الّذي يَحْمِله ويَدِين لَه بالوَلَاء. **(خليفة و فضل الله، 2005م،ص13)** فَهَذه الأفْكَار والرّؤى كمَا تُسَاعِد الإنْسَان عَلَى بِنَاء عَلَاقَات اجْتِمَاعِية، فَبِوَاسِطَتها يَبْني أفْعَالَه وتَصَوُّرَاته ومَوَاقِفَه، إمّا سَلْبًا أو إيجَابًا. وتَعْبِيره عَنْ رُؤاه الإيدْيُولوجية المقنّعة وولَائِه لهَا.

وبالحَدِيث عَنِ الرّواية كَإيدْيُولوجيا، فإنّه يُمْكن الإشَارَة إلَى الصّرَاع الفِكْريّ فِي الرّواية واسْتِيعَاب التوجُّهات الّتِي يَمِيل لَها كُلّ

طَرف، فَهِي الّتِي نَعْرف مِنْ خِلَالها تَوجّه الكَاتِب ومَوْقِفه علَى اعْتِبَار أنّ « إيدْيُولوجيا المؤلّف، إذَنْ هِي الإيدْيُولوجيا العَامّة كَمَا عِيشَت واشْتُغل عَلَيْها ومثّلت مِنْ قَبل وجْهَة نَظَر مُعَيّنة مُحتّمة دَاخِلَها.» **(ايجلتون، 1992م، ص76)** وبِالتّالِي تَرْتَبِط بِمَوْقِف الكَاتِب ورُؤاه وتَصَوّرَاته الفِكْريّة، لَا بِالشّخْصِيات الرّئيسيّة (الأبْطَال) كُلّ وَاحِد عَلى حِدَه، وإنّمَا بِشَكْل شَامِل.

فالإيدْيُولوجيا عُمُومًا تَظْهَر مِنْ خِلَال التّعْبِير عَن طَبَقة مُعَيّنة أوْ انْتِمَاءات فِكْريّة، رَغْبَة فِي تَحْقِيق مَصْلَحة، والسّعْي لتَقْويض مَا هُوَ سَائِد، والإتْيَان بِالبَدِيل، كَمَا تُقِيم حَاجِزًا وتَحْجِب الرُؤْية والوُضُوح والحَقِيقة، وغَالِبًا مَا تَكُون أهْدَافها غَائِيّة ومُقَنّعة ويَشُوبها الزّيْف والدُّغْمَائية، « فَمَا يُميّز الفَلْسَفة المَاركسيّة مِنْ بَيْن الفَلْسَفات الأخْرَى، فِي أنّها تَمْلك مَوْقفا مِن الإيدْيُولوجيات القَائِمَة ومُحَاولة بِنَاء رُؤية جَدِيدة مُخْتلفة غَيْر أنّ هَذا لَا يَعْفِيها مِنَ الوُقُوع فِي كُلّ مَا وُصِفَت بِه غَيْرها، مِن مُحَاولة تَزْييف الوَاقِع والنّظر لَه انْتِقَائيا، لأنّها فِي النّهَاية لَا تَتَعدّى أنْ تكُون إيدْيُولوجيا كَغَيْرها.» **(البطحاوي، 2016م، ص76، 77)** ويَبْقَى ذَلِك حُكْمًا جُزْئِيّا، فَلا يَعْنِي أنّ تَكُون دَائمًا سِلبيّة.

2. إيدْيُولوجيا الكَاتِب فِي رِوَاية (الآدميّون) لـ" إبْراهِيم سَعْدي":

1.2 عَتَبَةُ العنْوَان:

بالرُّجُوع إلَى روَاية "الآدميّون" لـــ" إبْرَاهِيم سَعْدي" نُلَاحظ أنّه كَلِمَة وَاحِدَة بِبنْيَة لُغَويّة مُفْرَدة بِصِيغَة الجَمْع، والمُتَمثّلة فِي "الآدميّون" نِسْبَة إلَى بَنِي آدَم، و دَلَالة علَى شَخْصِيَات مِنْ عَالَم آخَر، أشْبَه مَا يَكُون بِوُحُوش مُدَمّرة فَلَا يَعْرِفُون غَيْر القَتْل وَسَفْك الدّمَاء والتلَذُّذ بِذَلِك، والدّلِيل قَوْل الكَاتِب علَى لِسَان الرّاوي: « فأنَا لَا أحِبُّ أنْ تُشْبه المَأمُونة هَذا العَالَم الآخَر، لَكِنْ أعَزّي نَفْسِي بِأنّ أهْلَه، ويُطْلَق عَلَيْهم اسْم بَنِي

آدَم، يُدمّرُون كُلّ مَا يَبْنُون مُنْذ أنْ خُلِقُوا وهَكَذا دَوَاليك إلَى أنْ يَنْتَهي بِهُم المَطَاف إلَى الدّمَار الشّامِل والعَظِيم» (سعدي، 2018م،ص6)؛ وهُم مَنْ كَانُوا سَبَبًا فِي اخْتِلال الأمْن والسّكِينَة اللّذَين كَانَت تَعِيشُهما " المَأمُونة" المَمْلكة الّتِي هِي بالنّسْبة للرّاوي المَمْلكة المِثَاليّة، الّتِي لا تشُوبها الأخْطَاء ويَنْشُد مِنْ خِلَالها المَأْمُول ويَرْنُو إلَى العَيْش السّعِيد. وفِي غُرّة الجَرِيمَة المُفْتَعلة الأولَى مِنْ نَوْعِها تَنْقَلِب المَمْلكة رَأْسًا علَى عَقِب لتَظْهَر عَلَامَات زَمَن التّيْه والظّلَام لقَوْله:« أمَرٌ غَيْر مَعْرُوف ألَمَّ بالمَمْلكَة أيّامَها، جَرِيمَة قَتْل بَشِعَة عَلَى مِنْوَال مَا يَحْدُث فِي عَالَم الوَاقِع.» (سعدي، 2018م، ص6) كَانَت سَبَبًا فِي أنّ حَاضِرَة "العزيزة" قد بَدَت عَلَيْها عَلَامَات السُّقُوط، ودُخُولها فِي مَرْحَلة مَا بَعْد السُّؤْدد، وشَارَفَت عَلَى الانْهِيَار وانْبِعَاث القِيَم السّلبِية فِيهَا.

ومَا وَرَدَ فِي مَتْن الرّوَاية، وانْطِلَاقًا مِنْ أحْدَاثِهَا وَوقَائِع الجَرِيمَة المُرْتَكَبة مِنْ قِبَل الآدَمِيين يُؤَكّد مَا أشَارَ إلَيْه "سَعْدي" فِي عنْوَان رِوَايَته، نَظَرا لِحَدِيثه عَنِ العَالَم الآخَر، عَالَم الآدَمِيين، ومِنْ بَيْنِهم "نازر مَاشَاهُو" الّذي جَاءَ للمَمْلَكة ودَخَلَها جَالِبًا مَعَه حَدَث المَوْت فِي أرْض الصّمْت، لقَوْل السّارِد: « ثَمَانِية أيّام علَى اخْتِفَاء إيلَام حِينَ دَخَل المَأْمُونية مَخْلُوق اسْمُه نَازِر مَاشَاهُو، مَاسِكًا عُكّازًا، مَصْحُوبًا بِكَلْب صَغِير ذِي ذَيْل قَصِير يُشْبِه شَكْله الهِلَال.» (سعدي، 2018م، ص9) تَمَّ الإعْلَان عَنِ الجُثّة المَوْجُودة بِالبَيْت الخَرِب بِوَاسِطَة العَجُوز المُتَنَكّر "مَاشَاهُو" وبِذِكْر الجَرِيمَة الأولَى فِي تَارِيخ المَأمُونَة والمَوْت الفَرِيد مِنْ نَوْعِه، بِفِعْل فَاعِل، أرَادَ التّمْوِيه والتّبْلِيغ عَنِ الأمْر لإبْعَادِ الشُّبْهَة عَنْه، فَهَذِه الرّوَاية تَحْكِي قِصّة المَأمُونَة وبِدَاية دُخُولَها فِي ظَلَام، وظُهُور بَوَادِر زَمَن التّيْه والمُدَبّر لَهَا مِن قِبَل أيَادٍ خَفِيّة وأشْخَاصٍ مِنَ العَالَم المَجْهُول.

ومِنْ خِلَال التّرْكِيز علَى هَذِه الحَادِثة تَظْهَر إيدْيُولوجيا الكَاتِب بِشَكْل مُلْفِت للنّظَر بِحَدِيثِه عَنِ الظّهُور الأوّل والمُفَاجِئ للمَوْت بالمَمْلَكَة، الّتي لَطَالَما كَانَت بالنّسْبَة لَه المَمْلكة المِثَاليّة والّتي لَمْ تَعْهَد فِي مَسِيرَتِهَا مَوْتًا مِنْ هَذا القَبِيل، إلَّا المَوْت الّذي يَكُون بَعْد طُول العُمْر؛ أيْ المَنيّة الطَبِيعِيّة.

فَالرّوَايَة كَجِنْس أدَبِي تَوَاصُلِي يَحْوِي رسَائِل تَوْعَوِيّة للمُجْتَمع، مِنْ خِلَال تَضَمُّنِها للعَدِيد مِنَ الخِطَابَات مِنْهَا: السّياسِية والاقْتِصَاديّة وحَتّى الإيدْيُولوجية مِنْ مُنْطَلَق أنّه لَا يُمْكِنُ لِأَيّ عَمَل أدَبِي وخُصُوصًا الرّوَاية أنْ تَخْلُو مِنَ الأدْلَجَة، وَالإيدْيُولوجيا تُمثّل « نَسَق مُتَرَابِط مِنَ المَقُولَات الّتِي تُفَسّرُ الوَاقِعَ وَتَنْطَوِي فِي الوَقْتِ نَفْسِه عَلَى صِيَاغَة رُؤْيَة مُسْتَقْبَليّة لِمَا يَنْبَغِي أنْ يَكُون عَلَيْه هَذَا الوَاقِع» **(عباس، 2014م، ص37)** ؛ فَالرّوَائي أثْنَاء سَرْدِه للْوَقَائِع والأحْدَاث، يُضْمِر أفْكَارًا يَوّدُ هُوَ كَسَارِد لَهَا تَمْرِيرَهَا لِوَسَطِه الاجْتِمَاعِي، إمّا عَلَى لِسَان الرّاوِي أوْ الشّخْصِيَات المُتَصَارِعَة دَاخِله، وَقَدْ تَتَمَثّل الإيدْيُولوجية فِي الصّرَاعَات بَيْنَها وتَلَفُّظَاتِها، أوْ مِنْ خِلَال أحَد عَنَاصِر البِنَاء السّرْدِي. والرّوَاية الّتِي تَتَعَدّد فِيهَا الأصْوَات نَجِدُ فِيهَا أيْضًا تَعَدُّد زَوَايَا الرُّؤَى حَوْل قَضِيّة مَا.

2.2 حُضُور إيدْيُولوجيا الكَاتِب فِي الرّوَايَة:

حَظِيَتْ الإيدْيُولوجيا بِمَكَانَة بَارِزَة ضِمْنَ البِنَاء السّرْدِي كَمَا احْتَلّتْ حَيّزًا هَامًا فِيه، حَيْث يُمْكِنُ أنْ تُلْحَظ فِي بَعْض التّقْنِيَات السّرْدِيّة الّتِي يَسْتَخْدِمُها الرّوَائِي فِي عَمَلِه، وفِي إطَار تَجْسِيدِه لذَلِك يَلْجَأ إلَى طُرُق عَدِيدَة انْطِلَاقًا مِنْ وجْهَات نَظَرِه اتّجَاه وَاقِعِه، وانْتِقَادِه والحُكْم عَلَيْه بِمُطَابَقَتِه لَهُ أوْ مُنَافَرَتِه. فَيَكُون حُضُور الإيدْيُولوجيّة وِفْقًا لرُؤْية سَرْدِيّة نَابِعَة عَن الرّوَائي المُشَارِك فِي الأحْدَاث، أو علَى لِسَان السّارِد

لِلَوَقَائِع « فَمَفْهُوم الرُّؤْيَة يُسَاوِي أحْيَانًا الموْقِف الفِكْرِيّ للكَاتِب أوْ المَوْقِف الإيدْيُولُوجي أوْ المَضْمُون الإيدْيُولوجي إذَا تَعَلّق الأمْر بالكَلَام عَنِ الإبْدَاع ذَاته» **(لحمداني، 1990م، ص114)**، وبِالتّالِي فَإنّ أيّ مَوْقِف اتّجَاه قَضِيّة مَا، يَكُون نِتَاج لِرُؤْية مُعَيّنة ذَات أبْعَاد إيدْيُولوجيّة؛ سَوَاءَ تَعَلّق الأمْر بِوَعْي الكَاتِب أوْ بِغَيْر وَعْيِه، وقَدْ يَكُون تَصَرُّفه تِلْقَائِيًا نَابِعًا مِنْ مُؤَثّر مُعَيّن، وَتَوجّه يُعَبّر عَنْ إيدْيُولوجية مَا.

كَمَا يعدّ حَمِيد لحَمْداني «الإيدْيُولوجيا الرّوَائِيّة مُرَادِفًا لِمَفْهُوم الرُّؤْية» **(لحمداني، 1990م، ص161)** فَرُؤْية الكَاتِب الّتِي يَتّخِذُها بالنّظَر لمُجْتَمَعِه هِيَ نِتَاج لإيدْيُولوجيّة مَا، وأَيّ رِوَائِيّ فِي انْتَاجِه لفَنّه يُضَمّنُه أفْكَار ورُؤَى فِكْرِيّة، وعَلَى هذَا الأسَاسْ يُمْكِن الحَدِيث عَنْ إيدْيُولوجيا الكَاتِب الّتِي عَادَة مَا تَكُون صَادِرة عَنْ مَشَارِبه الثّقَافِية ومَرْجِعيَاته الفِكْرِيّة والاجْتِمَاعيّة، ونَظْرَتِه لمجْتَمَعِه ومَا يَخْتَلِجُه مِنْ تَغَيُّرات، فَيَعْمَل عَلَى عَكْسِهَا فِي إبْدَاعِه الأدَبِي الرّوائي.

وحَسَب" شُكْري عَزِيز مَاضِي" « فَإنّ إيدْيُولوجيا الكَاتِب تُؤَثّر فِي رُؤْيَته للأدَب وَدَوْره ووَظِيفَته وتَنْعَكِس عَلى العَمَل الأدَبِي مَوْضُوعا ومَضْمُونًا» **(عزيز ماضي، 2005م، ص105)**، فَتُشَكّل أحَد المسْتَوَيَات الّتِي تُسْهِم فِي بِنَاء العَمَل السّرْدِي، كَمَا يَعْمَل الرّوَائِي علَى تَسْيير الأحْدَاث والتحَكّم فِي العَلَاقَات الّتِي تَرْبط الشّخْصِيَات، وتَحْرِيكَها بِمَا يُنَاسِب رُؤَاه وفْقًا لاعْتِقَادَاته المشَبّعَة بإيدْيُولوجيّة مَا تَأثّرًا بِتَوجّه فِكْرِيّ مُعيّن، ومِنْه يُمْكِن أنْ نَحْكُم علَى الشّخْص بِأنّه ذُو تَوجّه اشْتِرَاكي (شُيُوعي)، أوْ رأسْمَالي، لَكِن ذَلِك لَا يَعْنِي أنّ كُلّ الآرَاء وَاحِدة فِي الرّوَاية؛ لأنّه وَلتَعَدّد الأصْوَات فِيهَا نَجِدُ أيْضًا تَعدّد الإيدْيُولوجيات المتَصَارعة، والّتي يُحَاوِل الرّوائي تَجْسِيدَها مِنْ خِلَال الأفْكَار والرُّؤَى النَّابِعَة عَن

الشّخْصِيَات ومَوَاقِفِهم ، ووُجُود تَعَارض بَيْن الآرَاء فِيهَا وقَدْ يَظْهَر تَوَجُّه الكَاتِب بانْحِيَازِه لموْقِف مَا؛ سَوَاء أدْرَك ذَلِك أوْ لَمْ يُدْرِكه.

كَمَا لَا يُمْكِن النّظَر إلَى الرّوَاية بِعَدّها بَوْتَقة سِيَاسيّة لَا جَمَاليّة فِيهَا، بَلْ علَى العَكْس مِنْ ذَلِك تَمَامًا، فَإنّ « الإيدْيُولوجيَات تَدْخُل فِي عَالَم الرّوَاية التّخْييلِي كَمُكَوّن جَمَالِي يَكُون أدَاة فِي يَدِ الكَاتِب ليُعَبّر فِي النّهَايَة بِوَاسِطَتِه عَنْ إيدْيُولوجيَته الخَاصّة، لِذَلِك نَقُول إنَّ الرّوَاية باعْتِبَارها إيدْيُولوجيا لَا تَتَأسّس إلَّا بِوَاسِطة ومِنْ خِلَال الإيدْيُولوجيات فِي الرّوَاية» **(لحمداني، النقد الروائي و الإيديولوجيا، من سوسيولوجيا الرواية إلى النّص الروائي، 1990م، ص40)**، وبالتّالي يُضْفِي الكاتِبُ لمَسَات تَخْييليّة علَى عَمَله الفَنّي ويُمْكِن النّظر للإيدْيُولوجيا بِأنّها أحَد أهَمّ المسْتَويَات الّتي تُشَارِك فِي البِنَاء السّرْدِي وجَمَاليّة النّص الرّوَائِي.

ومِنَ الضّرُوري الإشَارَة إلَى أنَّ رِوَاية (الآدَميُّون) لـــ" إبْراهِيم سَعْدي" صَدَرت عَن مَنْشُورَات الاخْتِلَاف بالجَزائر، وضِفَاف لبنان، فِي طَبْعَتِها الأولَى(2018م)، حَيْث كَتَب "سَعْدي" رِوَايَته بأسْلُوب جَدِيد مُخَالِف لبَاقِي أعْمَالِه الرّوَائِية الّتِي لَا تَكَاد تَخْرُج عَن الوَاقِعيّة، بِحَيْث جَاءَت رِوَايَته (الآدميّون) فِي شَكْل فَانْتَازِي عَلَى النّسْق البُولِيسِي، مُحَاكِيًا فِيهَا الوَاقِع العَرَبيّ ومَا بَاتَ هَذَا العَالَم يَعِيشُه مِنْ مَآسٍ، بِسَبَب الاضْطِرَابَات والتّوتُرات سَوَاء أكَانَت دَاخِليّة أوْ خَارِجيّة مِثْل مَا حَدَث فِي كُلّ مِنْ سُوريا وفِلسْطِين وغَيْرهما، وهَذَا الشّكْل الرّوَائِي قَائِم عَلَى البَحْث عَن المجْرِم والمرْتَكِب للجَرِيمَة الأولَى الّتِي وقَعَت بالمأمُونة، ومُطَارَدَته مِنْ قِبَل المنقّب "شِينْ هَاء" الّذي يَقْضِي حَيَاتَه فِي مُحَاوَلة فَكّ لُغْز مَوْت أرْض الصّمْت، فَبِالنّسْبة لَه« لَايَزَال أدَاء الوَاجِب تَاج الفَاضِل فِي المَمْلَكة.» **(سعدي، 2018م، ص93)** ليَكْشِف القَاتِل نَفْسَه فِي

رِسَالة أرْسَلَها لَه، بَعْد اخْتِفَاء المنقّب مِن المَمْلَكة وذَهَابه للعَالَم المجْهُول للبَحْث عَن "نَازِر مَاشَاهُو" الّذي اكْتَشَف جُرْمه بَعْد فَوَات الآوَان وهَرَبه مَن المملَكة، وتَيَقُّنه مِنْ عَدَم وُجُود هَذَا العَالَم المِثَالِي الّذي لَطَالَما اعْتَقَد بِوُجُوده فِي بِدَاية الأمْر، ويَظْهَر مِنْ قَوْله عَلَى لِسَان السّارِد « مَا كَانَت هُنَاكَ حَاجَة إلَى أمَنَاء سِوَى مِنْ أجْل تَنْظِيم المرُور وبِالكَاد حَتَّى. هَكَذَا رَسَخَت فِيهم بِمُرُور الأزْمِنَة، هُم وغَيْرهم مِن بَنِي المملَكة، غَرِيزة الاطْمِئْنَان. غَرِيزة لَا تُكَدّرها حَتَّى تِلْك السّحَابَة المتَوَارِية فِي الأفُق البَعِيد العَائِدَة إلَى اعْتِقَاد فِئَة قَلِيلَة مِنْ سُكّان المأْمُونَة بِأنّه سَيَأْتِي يَوْم تَزْحَف فِيه جَحَافِل مِنْ بَنِي آدَم مُدَجَّجِين بِأسْلِحَة الدّمَار المطْلق، آتِينَ مِن العَالَم المجْهُول، لِوَضْع نِهَايَة لحَضَارَة المَمْلَكة.» **(سعدي، 2018م، ص7)** فَبَعْد أنْ كَانَت المأْمُونة تَعِيش حَيَاة اسْتِقْرَار وسُؤْدد بِاعْتِبَارها عَالَم خَيّر، ليَعْصِف بِهَا هُجُوم أحَد الآدَمِيين "نَازِر" المبْتَكِر الأوّل لموْت أرْض الصّمْت، فَالكَاتِب فِي بِدَاية الرّوَاية وعَلَى لِسَان الرّاوي يَرَى أنّه رَغْم إيمَان بَعْض سُكّان المَمْلَكة بِدَوَام الاطْمِئْنَان، إلّا أنّ البَعْض الآخَر مِنْهم يَرَى العَكْس وأنّ هُنَاك عَالَمًا آخَر مُغَايِرًا تَمَامًا لعَالَم المملَكة يُخَالِفُها العَادَات والتّقَالِيد وحَتَّى طَرِيقَة العَيْش وهُوَ عَالَم الآدَمِيين الآتِينَ مِن العَالَم المجْهُول بِغَرَض تَدْمِير المملَكة والقَضَاء علَى حَضَارَتها وجَلْب الخَرَاب لأهْلِهَا. وعَلَيْه فَإنّ المنقّب "هَاء" قَدْ « فَكّر بِأنّ الآدَمِيين رُبّما أسّسُوا حَضَارة ... رُبّما أقَامُوا أوْ الأصّح احْتَلّوا المملَكَة.. فِي مَاضٍ سَحِيق لَا يَتَذكّره أحَد، ثُمّ هُزِمُوا وَطُرِدُوا مِنْها. لَكِنّهُم لَمْ يَتَمَكّنوا مِنْ نِسْيَان فَرْدَوْسهم المفْقُود ولَا غَادَرَهم الحَنِين إلَى العَوْدة ذَات يَوْم للقَضَاء عَلَى المأمُونة هَذِه المرّة قَضَاء مُبْرَما. قَدْ يَكُون التّضَاد بَيْن الآدَمِيين تَضَادًا أزَليًا لَا نِهَاية لَه أوْ لَا خَاتِمَة لَه إلّا يَوْم أنْ يَقْضِي أحَدَ الطّرَفيْن عَلَى الآخَر كَمَا خَمّن.» **(سعدي، 2018م، ص82)** فَدَائِمًا مَا كَانَت تُرَاوده مَخَاوِف بِهَذا الشّأن، فَحِينَمَا يُفَكّر فِيمَا

تَعِيشُه المملَكة مِن هُدوء إلّا ويَحسّ بأنّه هُدُوء مَا قَبْل العَاصِفَة، وأنّه فِي أيّ وقْت سَيَظْهَر مَا يُنغّص عَلَيْهم هَذِه الطُمَأنِينَة والسّلَام الّذي تَعِيشه "المأمُونة" عَامّة و"العزيزة" خاصّة. فَيُمْكن أنْ نُمثّل لِذَلك بِمَا عَاشَتْه البُلْدَان العَرَبيّة مِنْ حُرُوب ودَمَار مِنْ طَرَف المسْتَعْمر الأجَنَبِي وطَمَعِه بِأرَاضِيهَا وثَرَوَاتِها. وهَذَا مَا يَجْعَل مِنْ رِوَايَته تَتّصِل نَوْعًا مَا بِالوَاقِع، رَغْم أنّهَا غَرَائِبيّة تَمِيل لاسْتِخْدَام الأدَوَات الفَلْسَفِيّة.

وعَلَيْه، يَقُول" سَعِيد عَلوش": « لَا يَخْلُو أيّ عَمَل مِنْ نِيّة. لهَذَا نَجِدُ أنّ رِوَاية المَغْرب العَرَبِي ... لَا تَتَردّد كَشَكْل فَنّي فِي دُخُول مُغَامَرة إيدْيُولوجية تَسْتَثْمر فِيهَا التّخْييلِي والجَمَال فِي البَحْث عَنْ تَجَربة هَذَا الإنْسَان» **(علوش، 1981م، ص113)** فَلَا يُوجَد هُنَاك مَنْ يَكْتب دُونَ أنْ يَكُون إبْدَاعه فَحْوَى لأفْكَار يَودّ إيصَالَها للقَارِئ، والجَدِير بِنَا هُنَا العَمَل عَلَى اسْتِشْفَاف إيدْيُولوجية الكَاتِب "سَعْدي"، الّتِي أرَادَت (الآدَميّون) البَوْح بِهَا، مِنْ خِلَال مَا تَحْمِله مِنْ وَقَائِع أوْ بِالأحْرَى المسْكُوت عَنْه فِيهَا، والدّلَالَات والمعَانِي ذَات الأبْعَاد الإيحَائِيّة الّتِي رَغب مِنْ خِلَالها "سَعْدي إبْراهيم" بَثّ رُؤَاه وتَصَوّرَاته الفِكْريّة عَن الأوْضَاع الّتِي مَرّت بِهَا المملَكة فِي مِحْنَتها، وذَلِك كلّه يَكُون عَبْر الخَطّ الرّابِط بَيْن السّارِد والكَاتِب؛ هَذَا الأخِير الّذي هُوَ« خَالِق العَالَم التّخْييلِي وهُوَ الّذِي اخْتَار الأحْدَاث والشّخْصِيَات والبِدَايَات والنّهَايَات – كَمَا اخْتَار الرّاوي- لَكِنّه لَا يَظْهَر ظُهُورًا مُبَاشِرًا فِي الفَنّ القَصَصِيّ» **(قاسم، 2004م، ص184)**، وأنّه يَقْبَع خَلْفَ الرّاوي الّذي يَسْتَخْدِمُه، كَتِقْنِيَة رِوَائِيّة لأجْل تَمْرِير رُؤَاه، دُوْنَ تَعَرّضِه لأيّ مُسَاءَلة، سَوَاء مِنْ مُؤسّسَة حُكُومِيّة أوْ ثَقَافيّة أوْ غَيْرها فَيَكُون بِمَثَابة قِنَاع، يُعبّر بِه عَنْ مَوَاقِفه وآرَائِه، وتَصَوّرَاته المخْتَلِفَة.

فَضْلًا عَلَى ذَلِك، لَا يُمْكِن نَفْي إمْكَانِية وُجُود تَعَالق بَيْن الرّوَائِي وشَخْصِية الرّاوي، مَا قَدْ يُؤَدّي أحْيَانًا لإحْدَاث تَطَابُق تَام، فَفِي" الآدَميّون" تَظْهَر رُؤَى" إبْرَاهِيم" مِنْ خِلَال الرّاوي "حَسَن أحْمَد طُومْباز" المؤَسّس الحَقِيقي للهُجُوم الّذي قَامَ بِه "مَاشَاهُو" علَى الممْلكَة وارْتِكَاب جَرِيمة القَتْل بحقّ "إيلَام". وبالتّالي فَالكَاتِب يَتَحدّث عَن عَالَم الآدَميين عَلى لِسَان "طُومْباز" وبِالمقَابِل نَجِدُه يَقِفُ إلَى جَانِب المنقّب "هَاء" مُتّخذًا مِنْه بَطَلًا لرِوَايَته والشّخْصِيّة الرّئيسَة فِيهَا، ليَكُون بِذَلك مَسْؤُولًا عَن فَكّ لُغْز الجَرِيمَة، وَوُجُود عَالَم الآدَميين الّذين تَنَبّأ بِوُجُودهم مِنْ خِلَال خُرَافاته الّتي كَان يَكْتبها والدّلِيل قَوْله فِي الرّوَاية عَلَى لسَان الرّاوي: « لَطَالما تَحَدّث "شين هاء" فِي الحَقِيقة عَن الآدَمِيين فِي خُرافاته، رغْم أنّ ايمَانه بِوُجودهم لَمْ يَبْلغ إلَى ذَلِك اليوْم مَبْلغ اليَقين. كَمَا كَان مَفْتونا بِهم فِي الوَاقِع. كَان دَائم البَحْث عَن حَقِيقة وُجُودهم مِن عَدَمه. لَا يَكفّ عَن التّسَاؤل عَمّا إذَا كَان سَاكِنة المأمُونة هُم الوَحِيدُون فِي الكَوْن أمْ أنّ هُنَاك حَقّا كَائِنَات أخْرَى غَيْرهم. يَتَنَاسَلون مِثْلَهم... عَدا أنّه اعْتَبرهم دَائمًا شِرّيرين ومُتوحّشين.» **(سعدي، 2018م، ص27، 28)** فَهُو يَسْعَى لعَالَم مِثَالي خَال مِنْ كُلّ شّر، وأخْلَاقي بالدّرجة الأولَى لَا يَشُوبه أيّ زَلل، وكَاتبها- سَعْدي- يُوظّف فِيهَا الكَثِير مِنْ فَلْسَفة أفَلَاطون كَعَالم المثل، مِنْ خِلَال حَدِيثه عَن مَمْلكة المأمُونة؛ أي أنّه يَسْتَعِين بالفَلْسَفة المِثَاليّة، وهُو مَا يُفسّر توجّهه الفَلْسَفي.

حَيْث حَمَّل الروائي رُؤْيته الخَاصّة للسّارد، كَمَا سَعى لتَجْسِيدها باسْتِخْدام شَخْصيّة بِعَيْنها ألَا وهِي شَخْصيّة المنقّب "شين هَاء"، فإيدْيُولوجية الكَاتِب علَى هَذا الأسَاس؛ هِيَ إيدْيُولوجية المبْدع ذَاته، ورُؤْيته للحَيَاة والمجْتمع والكَوْن بِحُكْم انْتِمَائه إليه ونَظرا لأنّه فَرْد مِنْه، كَمَا تَرْتَبط بالرُؤية للجَمَاعة وبظُروف العَصْر الّذي يَعِيشه، وأيْضًا بالمكَان والمجْتمع المنْتمي إلَيه، فالرّوَاية كَعمَل إبْدَاعي فِي نِهَاية

المطَاف، هِي نِتَاج لإيدْيُولوجية الكَاتِب الّذي يَنْشُد وَاقِعه ويُحَاول تَحْسِينه أوْ تَغْييره، علَى الأقَل مِنْ خِلال الكِتَابة الإبْدَاعيّة الّتي يُخْرجها فِي قَالب سَرْدِي لأرْض الوَاقِع، إذْ تَنْتج كُلّ رِوَاية عَن رُؤية إيدْيُولوجية خاصّة بِمُبْدعها أوْ بِمُؤلّفها.

وتَأسيسًا علَى ذَلك، فالكَاتِب يَطْرح العَدِيد مِن الآرَاء والأفْكَار والتّصَوّرات ليَلج فِي نِهَاية الأمْر إلى إيدْيُولوجيته الخاصّة، فَكَما يَطْرح رُؤى تُعبّر عَنْه، يُمْكن أيْضًا أنْ تُعبّر عَن جِهَة مُعيّنة، وبانْتِمَائه الفِكْري لَهَا، وهُو مَا يُبْرز السّلْطة الكَامِلة لَه فِي هَذا الإبْدَاع الرّوَائي، علَى اعْتِبار أنّ هَذه السّلْطة هِي الّتي تُوجّه الأحْدَاث وتُحرّكها، وعلَى الرغْم مِن إمْكَانية تَواجد العَدِيد مِن الإيدْيُولوجيات فِي الرّوَاية، فَهُناك الإيدْيُولوجيا المِثَاليّة والّتي يُمثّلها الكَاتِب "إبْرَاهيم" مِنْ خِلال مَمْلكة "المأمُونة" قَبْل دُخولها زَمَن التّيه والقِيَم الّتي يُمثّلها المنقّب "هَاء" (الخير)، بالمقَابل نَجِد إيدْيُولوجيا العَالَم الحَقِيقي الوَاقِعي(الشّر)،ومِن زَاوِية أخْرَى فإيدْيُولوجية الكَاتِب تُحقّق حُضُورًا دَائمًا، بِحُكْم انْحِيَازه أوْ دِفَاعه عَن طَبَقة مَا، نَظَرا لأنّه كَان دَائمًا يَنْشُد عَالما مِثَاليا، لَا يُشْبه مَا عَانَتْه المأمُونة بِظُهور أولَى عَلَامات زَمَن التّيه، وهُوَ مَا يُثْبِته قَوْله عَلَى لسَان "نَازر" مُتَحدّثا معَ الأمِين الشّاب « .. تَقْصد المحْترم أنّك عَثَرت علَى مَخْلوق مَيت؟ أَلَيْس كَذَلك؟ لأنّ الجثّة والمَوْت شَيْئان مُتَلازِمان كَمَا لَا يَخْفَى عَن سِيَادتك، بالطّبْع. لمْ أفْهَم بالضّبْط مَا تَقْصد. لقَدْ اسْتَعْمَلت كَلِمَة لَا أعْرفها. أرْجُوك وضّح.. صَحِيح أنّ المخْلوق الّذي شَاهَدته مَيت إذا شِئْت، لكِن مَوْته فَريد مِنْ نَوْعه. لَا يُشْبه مَا نَعْرفه فِي المَمْلكة. لَا أحَد شَاهد مِثْله مِن قَبْل أوْ سَمع بِوُجوده، لَا أنَا ولَا حَضْرتك ولَا غَيْرنا، ولهَذا لَمْ تَفْهم مَا أقُول.» **(سعدي، 2018م، ص9)** فَالكَاتِب هُنَا يُؤكّد علَى أنّ مَمْلكة المأمُونة لَمْ تَشْهد مِنْ قَبْل تَصرّفات غَرِيبة كَالقَتْل

والموْت غَير الطّبيعي، وهُو مَا يَرْنُو إليه "سعْدي" في رِوَايته وبِظُهور أوّل جَرِيمة فِي المِمْلكة ولّى زَمَنها ودَخَلت فِي مَرْحَلة جَدِيدة مَرْحلة انْتِشار القَتْل والفُسوق والانْحِلال الأخْلاقي... إلخ. وهذَا الزّمن أطْلَق عَليه "شِينْ هَاء" كَمَا يَقُول فِي كَلَامه مَع زَوْجته "مَنار":« يُشَرّفني عَزيزتي منَار، أنْ تَكُوني أوّل مَنْ أبَلّغه اسْم الزّمن الثّالث. لقَدْ قَرّرت أنْ أطْلق علَيه اسْم الخَافِي. ذَلك هُو اسْمه مِنَ الآن» **(سعدي، 2018م، ص122)** فَهُو قَدْ اسْتَعْصَى علَيه الوُصول إلَى حَقِيقة قَاتل "إيلام" والمُرْتَكب لفِعْل القَتْل الأوّل مِن نَوْعه فِي المِمْلكة، وهَذِه اللّفْظة « أوّل مَنْ اسْتَعْمَلها فِي المأمُونة هُو مَخْلوق اسْمه " نَازِر مَاشَاهُو".» **(سعدي، 2018م، ص12)** حِينَ جَاء يُبلّغ عَنْ رُؤْيته لشَخْص مُلقى فِي الخَرابَة بِحَاضرة "العَزيزة"، مُنْتَحِلا لشَخْصيّة عَجوز يتَكئ علَى عَصًا ومَعَه كَلْب. لأجْل التّمْويه وخِدَاع الأمَنَاء، وقَدْ قَال فِي رِسَالة لَه أرْسَلها للمُنقّب "هَاء" بَعْد هَربه بثَلاثة أيّام كَمَا لمْ يَرَها المنقّب لأنّه قرّر الذّهَاب للعَالَم المجْهُول للبَحْث عَنْه ويَقُول فِي رِسَالته:« أنَا أعَرف، المنقّب الكَبِير، بِأنّ مَا جَعَلَك تضلّ الطّريق إليّ، أنَا "نَازِر مَاشَاهُو"، صَاحب مَوْت أرْض الصّمْت، هُو افْتِرَاضك بأنّه لَا يُعْقل أنْ يُقْدم المجْرم نَفْسه علَى التّبليغ بِجَريمته. وبِأنّه سَيَسْعَى بالأحْرَى إلَى إخْفَاء وجُوده.» **(سعدي، 2018م، ص170)** مَا يَعْني اسْتِغْلال "نَازِر" طِيبة المنقّب وحُسْن نِيّته به، ونُلاحِظ هُنا وجُود صِرَاع إيدْيُولوجي بَيْن قوَى الخَيْر والشّر، ويُحَاول الكَاتِب فَضْح الأسَالِيب البَشِعَة الّتي يُمْكن للطّرف الآخَر، اسْتِخْدامها وتَعْرية الوَاقع وكَشْف مَا يَقْبَع خَلْفه مِنْ أسْرَار مُقنّعة فَلكُلّ حَضَارة نُقْطة ضَعْف، والعَدوّ يُحَاول تَرَصّدها للقَضَاء علَيْها تمامًا، وهُو مَا فَعَله المجْرم المأجُور "مَاشَاهُو" بالضّبْط، والدّليل قَوْله فِي رسَالَته لـ "هَاء" «تذكرت هَذه الثّغْرة فِي حَضَارة المِمْلكة، فَأدْرَكْت لَحْظَتها بأنّي لَسْت فِي الأخِير أمَام خَيَارين لَا ثَالث لهُما، أنْ أقْتلك أنْتَ

أيْضًا أوْ اعْتَرف. وبأنّ أصْل النّجَاة لَايَزال قَائمًا وبأنّك قَرَأْتني قِرَاءة خَاطِئة وبَريئة. يَعْني عَلى ضَوْء ثَقَافة المملكة الخَالِيَة مِن التّوَجُس ومِنَ الخُبث، أي السّاذجة فِي الحَقِيقة.» **(سعدي، 2018م، ص141)** ومَا يُلْحَظ هُنا أنّ فِي كَلامه اسْتِهْزاء وسُخْرية مِن هَذِه الحَضَارة الّتي لَمْ تَسْتَطع الإمْسَاك بالمجْرم ومَنْع الخَطَر المحْدِق بالمملَكة ومِن الإطَاحة بِهَا، عِلْمًا أنّ كُلّ هَذه الإيدْيُولوجيات المتَصَارعة دَاخل العَمَل الفنّي تَظَل إيدْيُولوجيات مُبطّنة وضِمْنيّة، وهُو مَا تُحَاول هَذه المقَارَبة الوُصُول إلَيه، وذَلك مِنْ خِلَال مُحَاولة اسْتِشْفَاف الأبْعَاد الدّلَالية والبَحْث عَن المعْنى البَعِيد (مَعْنى المعْنى)، بِتَتَبعنا لكَلام الرّاوي "أحْمَد طُومباز" فِي رِوَاية (الآدَميّون).

فإيدْيُولوجية الرّوائي "سَعْدي" فِي عَمَله الإبْدَاعي تَتَمَاهى وتَخْتَفي وَرَاء كَلام الرّاوي "أحْمَد طُومباز" الّذي يُمثّل السّارد للأحْدَاث ووَقَائِع الجَرِيمة الّتي سَتتولّد عَنْها فِيمَا بَعْد حَرْب دَاخِليّة بَيْن أفْرَاد مَمْلكة " المأمُونة"، وبالضّبْط حَاضرة " العزيزة" إضَافة إلَى الشّخْصِيّة الرّئيسية فِيهَا؛ والّتي تَتمثّل فِي شَخْصِيّة البَطَل "شِينْ هَاء" الذّي يُحَاول إنْقَاذ المملكة مِنْ تَفَشّي الإجْرَام فِيهَا، كَمَا يَتحدّد المَسَار السّرْدِي لأحْدَاث رِوَاية (الآدميّون)، انْطِلاقا مِنْ ذَلِك إضَافة لبَدْئِية الأحْدَاث، وصُولَا لنِهَايَتها وعلَى ذكْر البِدَاية فَذلك يَظْهر مِنْ خِلَال قَوْل الرّاوي فِي بِدَاية الرّواية مُتحدّثا عَن تَأزّم الوَضْع فِي المأمُونة ودُخولها فِي حَرْب أهْليّة، حَيْث يَقُول عَلى لسَان الرّاوي "حسن أحْمَد طُومباز": « أتَردّد علَى مَقْهى مُغْلق الآن بِسَبب الحَرْب، جَالِسًا عِنْد جَانِب مِن مَدْخله، إلَى نَفْس الطّاولة دَائما. حَتّى النّادل لَا أكلّمه. يَضَع فُنْجان القَهْوة المعْتاد قُدّامي، أدْفَع لَه ثَمَنه في الحِين فَيَتَناوله ويَنْصَرف. مُنْذ يَوم أنْ أُلْقَى عليّ السّلام ولَمْ أرد عَلَيْه لمْ يَعُد يُخَاطِبني» **(سعدي، 2018م،**

ص5)، فبَدَأ الرّوائي بالنّهَاية والحَالة الّتي وصَل إلَيها سُكّان المُلْكة بَعْد ولُوج المأمُونة لمرْحلة الزّمن الثّالث (زَمن التّيه) وكَيْف اسْتَشْرى فِيهَا الدّمَار وأصْبَح بَعْضهم يَقْتل بَعْضًا واسْتَفْحل فِيهَا الفَسَاد بأنْوَاعه.

ومَا يُريد الكَاتِب الوُصُول إلَيه أنْ كُلّ انْسَان بَشَري هُو حَامل لنَزْعة الشّر بدَاخله وأيّ مَوْقف يُوَاجه الإنْسَان قدْ يَكْشِف عَن ذَلك، والدّليل مَا حَدَث مَعَ المنقّب " شِين هَاء" عِنْدما أخْبَره " زكري" بِقِيَامه بليّ عُنق البَبّغاء؛ والطَريقة الّتي هَاجَمه بِهَا وتَفْكِيره بالإقْدَام علَى قَتْله، انْتِقَاما للببّغاء حَيْث قَال الرّاوي:« أجَابه زكري بأنّه أقْدم علَى قَتْل هَالي، البَبّغاء العَجُوز، ملويا عنقه. حتّى هَلَك شرّ هَلاك... لَمْ أعد أطِيق سَمَاع صَوْته، المنقّب المحْتَرم. كُلّ مرّة " اخْرج من عندي! اخرج! لاَ أرِيد أنْ أرَاك، إلَى مَتَى، الفَاضل، أبْقى أتَحَمّل ذَلك؟ إلَى مَتَى؟ لقَدْ لَويْت عُنقه وتخَلّصْت مِنْه إلَى الأبد!... أخْرَج المنقّب أثْنَاءه سِلَاحه وقَذَف ابْن المقْتُول بِرَمْية دُخَانية طَرَحت بِه أرْضًا، مُطْلقا هَكذا أوّل طَلْقة فِي حَيَاته علَى مَخْلوق آخَر غَيْر نَفْسه.» **(سعدي، 2018م، ص239، 240)** فَكَانت هَذهِ مِن العَلَامات الّتي تُنْبئ بِظُهور الزّمن الخَافي كَمَا سَمّاه المنقّب "هَاء".

فـ "زكري" باعْتِباره ابْن المجْرم "نازر" ولَا عِلْم لَه بِذَلك، فَهُو يُشْبهه كَثيرا كَما أنّه وُلد وهُو يَخْتلف عَن أطْفَال المأمُونة وكَبر وهُو دائمَا بِمَلامح غَريبة، من يَنْظر لَه يَعْرف بأنّه يَحْمل عَلَامات دَالّة علَى مَجيء زَمن التّيه، وهُو مَا يُثْبته الوَصْف الّذي قدّمه الكَاتِب عَلى لسَان السّارد بقَوْله:« ظَهَر زكري إلَى الوُجود بقَامة طَويلة، هَزيلة، مَلِيح الوَجْه لوْلا أنّ أنْفه كَبير ونَظره كَئِيب وغَامض، يَرْنُو به بَعِيدًا أمَامه، يلوح علَى الدّوَام فِي حَالة مِن الغِيَاب. والتّيه واليَأس المشوب بمسحة من الشؤم.» **(سعدي، 2018م، ص7)** فهُو باعْتِبار النّسب؛ فَقدْ جَاء نَتِيجة

عَلاقة مُحَرّمة بَيْن المدْعو "نازر" وزوجة "إيلام" الّتي أغْواها "ماشَاهُو" بِمُوسِيقاه وجَعَل مِنْها خَائِنة لزَوْجها، ولمْ تَكُن هَذه ضَحِيته الأولَى فَحَسْب كَلامه من الرّوَاية فقَدْ قَال: « لَدَيّ أبْنَاء فِي مُخْتَلف مَنَاطق الممْلكة، ولِدُوا علَى طَرِيقة زكري يَسْتَثْني مِنْهم رَامْ ورَامِس، إبْنَاي الشّرْعِيَان الوحِيدَان.» **(سعدي، 2018م، ص152)** فهُنَاك نِسَاء كُثر قَام بالإطَاحة بِهنّ، حَيْث أخْضَعهنّ لمطَالبه المريضَة والوَحْشيّة، والنّتيجَة بَعْد ذَلِك قِيَامهنّ بالانْتِحَار لاسْتِيحَائهنّ مِنَ الأمْر ولكنّه نَسِي أنّ العَدَالة الإلهيّة تَتَحقّق عَاجلًا أمْ آجِلًا، ويَنْقَلب السّحْر علَى السّاحِر ليَشْمل أيْضًا مَنْ هُم أقْرب إلَيه، والدّليل قَوْل الكَاتب عَلَى لسَان "مَاشَاهُو": «أصَابَنِي هلَع كَبِير وأنَا أرَى جَحِيم العَلَامات الّتي أهْلَكت المخْلُوقات اللّائِي أغْوَيتهن فِي السّابِق تَظْهَر علَى هِنْد بِدَوْرها.» **(سعدي، 2018م، ص154)** وصَدَق المثَل القَائل: "فَكَما تُدِين تُدَان" ومَا ظَهَر علَى نِسَاء الممْلكَة أصَاب أيْضًا "هِنْد" زَوْجة المجْرم، فَقَدْ تُوفيت جَرّاء الأعْرَاض الّتي ظَهَرت علَيْها، وهِي نَفْسها الّتي عَانَت مِنْها كُلّ مَنْ كَانَت ضَحيّة لَه، لقَوْله: « بَعْدما مَاتَت هِنْد علَى إثْر تِلْك الأعْراض الخَبيثة، وقَد أتَت قَبْلها علَى إنَاث الممْلكة اللّائي قُمْت بإغْوَائهنّ، تَذكرت إيلام. وهُو مِثْلي مَاتَت زَوْجته.» **(سعدي، 2018م، ص167)** فَغَدْره انْتَشر بالمملْكة ومَسّ الجَمِيع فَلَم يَتْرك أحَدا إلاّ ولَحقه شَرّه سَوَاء من أصْدِقائه أوْ حَتّى زَوْجته مَاتت تَأثّرا بِوَحْشيته هُو مَا زَاد مِنْ مَرَضه وهَاجِسه بالقَتْل وعَوْدته لآدَميته الّتي لمْ يَتَخلّ عَنْها يَومًا، لذَلك قَال: « الحقّ أنّه بِدُون حبّ، بدُون هِنْد، وجَدْتني أعُود إلى آدَميتي. إلى ذِئْبيتي.» **(سعدي، 2018م، ص167)** فَهُو - نَازر ماشَاهُو- يُقرّ بانْتِمَائه لعَالم الآدَميين عَالَم الذّئاب؛ الّذين يُجسّدون كُلّ صُور الخِدَاع والمكْر والوَحْشيّة، والقِيَام بأفْعَال نَابِعة عَن الغَريزة، الّتي تَتَحكّم فِيه وتَصْدر أفْعَاله انْطِلاقًا مِنْها، فَلَيْس

سَهْل علَى الإنْسَان السّوي القِيَام بِمثْل مَا أقْدَم علَيه "نازر" بِخيَانته لصَدِيقه "إيلام"، وقَتْله دُون أدْنَى شَفَقة ثمّ التنكّر علَى صِفة عَجُوز، والذّهَاب والإخْبَار عَن مَكَان الجثّة والتّمْثيل طَوال الوَقْت والتّمَكن مِن إخْفَاء هويته وهُو مَا لَا يُمْكن أنْ يَصْدر إلاّ عَنْ شَخْص ذي حِنْكة خَطّط لذَلك الأمْر مِنْ قَبْل.

فَالتّصَرفَات الهَمَجيّة الّتي بَدَرت مِنْ "نَازِر" أفْضَت إلَى دُخول عِدّة مُصْطَلحات جَدِيدة للمَأمُونة لمْ تُعْرف فِيهَا مِنْ قَبْل كَالتّسرِيح بَيْن الأزْوَاج بِسَبب الخِيَانة، فَكَان الحَدث الأهمّ بَعْد القَتْل، لقَوْل الرّاوي:« والثّاني مِنْ حَيْث الأهَمّية بَعْد مَوْت أرْض الصّمْت. لَقد بَات يُعْرف يَوْمها بالتّسْريح، بَعْدَما اعْتَمده رجَال القَانُون فِي لُغَتهم مِمّا حَوّل المفْردات الأخْرَى إلَى مُفْرَدات لَه يُسْتَعان بِهَا فِي شَرْحه وتَعْريفه لَا غَيْر، هَكَذا ظَهَرت نَظَرية لَقِيت بعْض الانْتِشار، مَفَادها أنَّ سَبب ذَلك الحَدَث الكَبير بَيْن الذكَر والأنْثَى هُو الخِيَانة.» **(سعدي، 2018م، ص64، 65)** فَكَان السّبَب فِي انْتِشَار الفَسَاد فِي المَمْلكة وانْحِطَاط حَضَارَتها وسُقُوطها فِي فَخ الحُروب الداخليّة، وعَلى هذَا الأسَاس فإنّ ذَلك كُلّه كَان مُدبّرا لَه مِنْ قبل أيَاد خَفيّة، لأجْل القَضَاء علَى المَمْلكة وإدْخَالها فِي الظّلام وزَمن لَا عَهْد لَهَا بِهِ.

فالسّارِد "أحْمَد طُومْباز" بِعَدّه المؤسّس الحَقِيقي لِمَا حَدَث فِي المَمْلكة فَهُو المَسْؤول علَى مَا وصَلَت إليه المأمُونة، وكَمَا يَتبيّن مِنْ حَدِيثه وعْيه بالوَاقع المأسَاوي الّذي سَتؤُول إليه المأمُونة بَعْدَما دَخَلها مُصْطَلح القَتْل الّذي ابْتَكره العَجُوز "نَازر مَاشَاهُو" بِطَلب مِنْه، فَأصْبَحت "العزيزة" فِي ظلّ« مَوْت أرْض الصّمْت. وُجوه خَالية مِنَ الابْتِسَام. أفْكار صَامتة، لَا أصْوَات لَهَا. أبْوَاب ومَدَاخل مُوصَدة. لَيْل بِلا نَوْم. » **(سعدي، 2018م، ص45)** سَادَتها الاضْطِرَابات واللاسْتقرار وانْعِدام

الأمْن فِيها، فَبَات أفْرَاد المَمْلكة يَتَخوّفون حَتّى مِنْ تَرْك أبْواب مَنَازلهم مَفْتوحة كَمَا كَانُوا يَفْعلون ذَلك فِي عَهْد سَابق.

حَيْث أخَذ الرّاوي عَلَى عَاتِقه ضَرُورة سَرْد الوَقَائع، نَظرًا لأنّه عَايش الأحْدَاث وكَانَ الفَاعِل الأسَاس فِيها؛ كَوْنه المحَرّض " لنَازر" عَلَى ارْتِكاب جَريمَة أرْض الصّمْت، فَكَان بِذَلك المحرّك الأسَاس لِمَا حَدث فِي المَمْلكة. وهَذا الوَعْي يُمْكن رَدّه لوَعْي الرّوائي الّذي حَمّله للرّاوي وتَرْجمه علَى لسَانه، لهَذا قَال "شِينْ هَاء": « لَكِنْ أرِيد أنْ أنَبّئكم بأنّ مَا تُسمّيه المَمْلكة المُؤسّس هُو مِنْ بَني آدَم وبأنّه هُو مَن أرْسَل مَاشاهُو أوْ جَاء بِه إلَى المأمُونة.» **(سعدي، 2018م، ص297)** فَهُناك مَنْ يَتَرصّد المأمُونة ويُريد النّيل مِنْها بإرْسَاله "نازر" إلَيْها.

نَظرًا لأنّ "هاء" فرْد مِنْ هَذا المجْتمع يَنْتمي لَه، يُنَافح عَنْه، ويَطْرح آمَاله وطُموحاته، فإن أصَابه شَيء فَلا يَشْعر بِه غَيْره، وإنّما يُحسّ بِه هُو كَوْنه لسَان حَاله ومَا أصَاب المَمْلكة فِي تِلْك الفَتْرة، أمْر لَا يُمْكن نسْيَانه لَاسيمَا تِلْك الجَريمة الشّنْعَاء، الّتي حَلّت بالمَمْلكة والّتي قَام بهَا مُبْتكر مَوْت أرْض الصّمْت، فِي ظلّ تلك الأحْداث الّتي أخَلّت بسِلْم وأمْن المأمُونة الّتي مَا عَهدَت قَتْلا ولَا خِيَانة وأمُورا مِنْ هَذا القَبِيل ولَا أيّ نَوْع مِنَ الفَسَاد. فَقَدْ كَان المنقّب يَكْتب خُرافته ومَا حَدث فِي المَمْلكة تَقْريبا يُحَاكيها فَبُروز الموْت المفاجئ ومُرْتكبه المتخفّي بصُورة العَجُوز يُشبه كثير خُرافة "هاء" الّتي كَتَبها، ويَظْهر مِنْ قَوْل الرّاوي: « الخُرافة وعُنْوانها صَمْت السّنوات السّبع تَتَحدّث عَنْ شَخْص خُرَافي اسْمه "كُوس"، يَتَنكّر فِي صُورة مَخْلوق مِنْ مَخْلُوقات المأمُونة، ليَحْمل جُرثومة غَريبة تَنْتقل عَبْر الكَلام، رَاح يَزْرَعها فِي مُخْتلف رُبوع المَمْلكة. وهِي أسْوأ خُرافة كَتَبها هَاء عَن الآدَميين علَى الاطْلاق، فَقَدْ

أتَت تِلك الجُرثومة علَى مَا يُقَارب نِصْف سُكّان المأمُونة.» **(سعدي، 2018م، ص29)** فَكَانت كِتَاباته فِي قَالب خُرافي لَكنّها فِي الأصْل تُحَاكي وَاقِع المأمُونة، وفِيهَا تَنَبّأ لِمَا سَيَحْدث فِيهَا، وعلَيْه، يُقر "نازر" باعْتِبَاره وَاحدًا مِنَ الآدَميين بصِحّة مَا كَتبه المنقّب فِيمَا كَان يُدوّنه عَنِ الآدَميين والعَالَم المجْهُول، إذْ يَقُول لَه فِي رِسَالته: « إنّ الكَثير مِمّا سَرَدْته عَنِ الآدَميين صَحِيح، لاسِيمَا بِشَأن مَا قَدّمته مِنْ تفَاصِيل بشَأْن وحْشِيتهم ودَمَويتهم وخَطَرهم لذلك لمْ أنْظر مِنْ نَاحِيتي إلَى كِتَابَاتك بِوَصْفها خُرافات، كَمَا يَنْعَتها البَعْض.» **(سعدي، 2018م، ص151)** فالتّنكر حَدَث بالفِعْل مِنْ قبل مُرْتكب جَريمة قَتْل "إيلام" ومَجيئه مِنْ عَالَم الآدَميين والتّمْثيل علَى المنقّب "شِينْ هَاء"، ليَزْرع الشّر والفِتَن ويقْضِي علَى حَضَارة المملْكة، فالتّمْثيل حَسْبه – مَاشَاهُو-غَيْر صَادق لقَوْله أثْناء شَرْحه للمُنقّب:« أمّا التّمْثيل فَهُو فَنّ قَوَامه غِيَاب الصّدْق.» **(سعدي، 2018م، ص50)** حَيْث أشَار لذَلك "نَازِر" وهُو يَشْرح للمُنقّب عَن فَنّ الموسيقى والتّمْثيل، ولأنّ أهْل المملْكة لمْ يَكُن لَدَيْهم حسّ الشّك آنذَاك، لمْ يَشُكّ "هَاء" حتّى لما مثّل "ماشَاهُو" أمَامه وقَام بِدَوْر القَاتِل، وظَنّ المنقّب بأنّه يُمثّل ويُعيد الجَريمة ليُسَاعده فِي إيجَاد المجْرم الحَقِيقي فَيقُول الرّاوي: « من المدْخَل حَيْث رَأى نَازر يَخْتَفي، أبْصَر مَخْلُوقا آخَر يَخْرج مِنْها. دَهْشة عَارِمة لَا فَرْق كَبير بَيْنها وبَيْن الصّدْمة اسْتَوْلت علَيْه حِينها. كَان المخْلوق المُنْبثق مِنَ العَدم أصْغَر سِنّا مِنَ الموسِيقار العَجُوز بِعَشر سَنوات علَى الأقل، خَاليًا مِنْ عَلامَات الوَهْن والضّعْف ومِن مَسْحة الوَداعة واللّطْف أيْضًا... لقَدْ عَاد إلَى الظّهُور مِنْ نَاحيته مِثْلما غَاب بالتّمام والكَمَال، أمّا الموسِيقار العَجُوز "نَازر مَاشَاهو" فَلا.» **(سعدي، 2018م، ص59)** وبالتّالي فالمنقّب أصَابته دَهْشة ولكنّه لَمْ يُفكّر فِي أنّ "نَازر" العَجُوز يُؤدّي أمَامه حَقِيقته والجَريمة الّتي أقْدَم علَيْها، فَلَجأ للتّمْثيل وإيهَام "هَاء" بأنّه عَرْض درَامي تَمْثيلي،

فهَذا العَرْض هُوَ عَوْدة للأصْل لأنّه سَئم مِن شَخْصيّة العَجُوز المسنّ، إذْ يَقُول فِي رِسَالته لَه « فلَيْس مِنَ السّهْل إطْلاقًا أنْ يَحْبس المرءُ نَفْسه فِي صُورة شَخْص غَريب عَنْه سَاعَات طَويلة... وفِي الحَقِيقة كُلّما تَقَمّصْت شَخْصيّة ذَلِك العَجُوز، لمْ أكُن ألْهُو وأتَمَتّع.. أدْنَى سَهْو، سَيَكْشِف حَقِيقتي، فَأنَا فِي الوَاقع لمْ أكُن أمَثّل وإنّمَا أتَنكّر وأتَخَفّى.» **(سعدي، 2018م، ص171)** فَهُو يُقرّ بارْتِدَائه عَبَاءة التنكّر للظّفر بِمُبْتَغاه، وخِدَاع المنقّب لإتْمَام مَا جَاءَ به للمَمْلكة، وتَنْفيذ مَا طُلب مِنْه ومَا أرْسل لأجْله، ويبدُو أنّه نَجَح بمُخَطّطَاته ونَشَر الشرّ بالمأمُونة وزَعْزَع قِيَمها الحَضَاريّة.

ومَا يُلاحظ أنّ الكَاتِب "سَعْدي إبْرَاهيم" قدْ اسْتَعَان فِي عَمَله الرّوائي (الآدَميّون) بالمنْطق الأرِسْطي لِكَشْف الجَريمَة، وتَقْديس العَقل (ديكارت)، انْطِلاقًا مِنْ مُحَاولاته البَحْث عَن العَلَامَات المُفْضية إلَى وُجُود أقْوَام آخَرين غَيْر سُكّان المأمُونة وهُم الآدَميّون، بالتّحري والبَحْث المنْطقي عَن المتَسبّب الأوّل لموْت أرْض الصّمْت، والأسْبَاب المنْطقيّة لهَذا الفِعْل، فيَسْعَى المنقّب "هَاء" للحُصُول علَى إجَابَات علَى اسْتِفْسَاراته بِتَتبّعه للعَلامَات وكُلّ مَالَه عَلَاقة بِالجَريمَة، لقَوْل الرّاوي: « حِينَ عَاد إلَى الجُلُوس فِي مَكَانه السّابق، علَى الكَنَبة، فكّر هَاء بأنّه يُوجَد نَوْع مِنَ المشَابَهة بَيْن زكري وبَيْن غَريب نَازِر مَاشاهُو فِي مَقْطعه المسْرحي العَجِيب.» **(سعدي، 2018م، ص105)** فقَدْ أخَذ علَى عَاتِقه فكّ هَذَا اللّغْز والبَحْث عَن مُرْتَكب الجَريمَة ومَنْ كَان ورَاءَها، فَرَبط الأحْدَاث بِبَعْضها مُسْتقصيا عَلَاقات مَنْ حَوْله بالضّحِية" إيلام" وهَلْ يُمْكن أنْ يَمُوت علَى يَد أقْرَب النّاس إليه؟ ويُضِيف السّارِد "أحْمَد" قَائِلًا: « ظَلّت أسْئِلة شِينْ هَاء عَالقة فِي ذِهْنه تمَامًا مِثْل سِرّ الشّبه بَيْن زكري وقَاتِل أبِيه الّذي أبَى إلّا أنْ يَزُوره قَبْل أنْ يَلُوذ بِالفِرَار ويَخْتَفي

للأبد، كَمَا رَجّح شِينْ هَاء.» (سعدي، 2018م، ص238) لِيَكْشف القَاتِل عَنْ نَفْسه فِي رِسَالة له تَرَكها للمُنقّب وعَنْ القَرَابة الّتي تَرْبطه بــ "زكري" وأنّه ابْنه غَيْر الشّرْعي ونَتِيجة خِيَانة لصَدِيقه "إيلام". حَقِيقة لمْ يَسْتَطع "هَاء" الوُصُول إليها كَوْن "نَازر" فِي تَمْثيليته لمْ يَدع مَجَالا للمُنقّب لِيَشكّ فِي أمْره، إلّا بَعْد هَربه مِنْ المملكة وتَنْفيذ مُخَطّطه، لقَوْل "شِينْ هَاء" فِي الرّواية: « أعَاد أمَامي تَمْثيل مَشْهد ارْتِكَابه جَريمَته العَظِيمَة فِيمَا أنَا أتصوّر بأنّه راحَ يُحَاكي فَقط مَا جَرَى أوْ وَاقِع تَحْت تَأثير حَجَارة أرْض الصّمْت، أمْر لَا أدْرِي كَيْف سَأتَعَايش مَعه بَقيّة عَمْري. »(سعدي، 2018م، ص236) رغْم حِنْكة وذَكاء المنقّب، إلاّ أنّه خَدَع مِنْ طَرْف العَجُوز، فَفِي كُلّ عَرْض كَان يُؤدّيه "مَاشَاهُو" أمَامه يُظنّه تمْثيلاً لَا غَيْر، ويُضِيف قَائِلًا:« لقَدْ نَظَرت دَائمًا، للأسْف، إلَى صُورَته الوهْمِيّة بِوَصْفها حَقِيقته وإلَى حَقِيقته إلّا فِي مَشْهدين تَمْثيليين أدَاهما أمَامي بِدَهاء عَجِيب لكنْ ظَنَنْت بأنّه كَان يُمْثل لَا غَيْر.» (سعدي، 2018م،238) فالمجرم العَجُوز سَخر مِنَ المنقّب، ومِنْ حَضَارة المأمُونة لعَجْزهم عَنْ مُجَاراة عَالَم الآدَميون والكَشْف عَن جُرْمه وانْطِواء الحِيلَة علَيهم، وذَلك فِيه نَوْع مِنَ التّقزيم والاسْتِصْغار مِنْ قِيمَته كَإنْسَان مُحبّ لعَمَله ومِنْ قِيمَة الحَضَارة.

إضَافة لذَلِك، فالكَاتِب فِي رِوَايته، فَهُو يَتَقاطِع مَعَ العَدِيد مِنْ الفَلَاسفة إضَافَة للطّابع الغَرَائبي والبِنَاء البُولِيسي للرّواية، رغْم ذَلِك فَهِي تَنْحو منْحى واقِعيا بحُكْم نَظْرته للعَالَم العَربي مِنْ حَوْله ومَا عَاشَه من أزَمَات بِسَبب الحُروب والاسْتِعْمَار. وفَضَاءَات الرّوَاية كُلّها مُتعدّدة تَرَاوَحَت بَيْن الطّوبَاوية المِثَاليّة، والتّراجِيدية الدوسْتُوبية والرّوَاية حُبْلى بالمُغَامَرات الغَرائِبيّة للبَطَل "هَاء" الّذي يَخُوضها باعْتِبَاره بَطَلا تَراجِيديا، فِي النّهَاية كَامل فِكْرة الرّوَاية هِيَ تَجْسيد لعَمَلية بَحْث عَن عَالَم مِثَالي يُريد البَطل أوْ المؤلّف" سَعْدي" الوُصُول لَه، لكنّه يَكْتَشف

اسْتَحَالة وُجُوده وهُوَ مَا يُثْبِته التّصَرف الّذي بَدَر مِنْ "هَاء" حِينْ وصُوله بَعْد أعْوَام مِنَ البَحْث للمُؤسّس "حَسن أحْمَد طُومْباز" فقَدْ طَرح عَلَيْه أسْئِلة كَثيرة لَطَالما حِيرَته وحَرَمته النّوم والعَيْش بسَلام إذْ يَقُول لَه:« لماذا أرْسَلت إلَينا مَنْ دَمّر حَضَارَتنا وزَرَع فِيهَا الشّر؟» **(سعدي، 2018م، ص311)** فـــ" هَاء" لمْ يَتقبّل فِكْرة أنْ تَدخل المَمْلكة فِي عُصُور ظَلام وفِي زَمَن اللّاأمن، بَعْدما كانَ سكّانها لا يَعْرِفُون الإجْرَام ولَا السّوء. ففي حِوَار دَار بَيْنه وبَيْن المؤسّس "أحْمَد طُومْباز" أخْبَره بأنّ المَمْلكة تَلاشَت بِقَوْله:« المَمْلكة لمْ تَعُد مَوجُودة. حَضَارة المأمُونة زَالت. انْقَسَمت المَمْلكة إلَى كَيَانات لَا تَتَخيل عدَدَها. لَا تَنْتهي حَرْب بَيْن هَذَا الكَيَان وآخَر إلّا لتَبْدأ أخْرَى بَيْن هَذَا وذَاك. كبَار الأمَنَاء صَارُوا لَا يَمْشُون بَيْن النّاس ولَا يُقِيمُون العَدْل... الغَزو أكَمَل تَدْمير مَا تَبَقّى مِنْها. » **(سعدي، 2018م، ص312)** مَا زَاد مِنْ غَضَب "هَاء" وقرّر أنْ يُطْلق النّار عَلَيه، والاقْتِصَاص مِنْه لِمَا أصَاب المأمُونة دُون وَعْي مِنْه بأنّه قَد يُصْبح آدميا بتَصرّفه هَذا، فالغَضَب حَوّله هُو بِدَوْره لآدمِي قَاتل لقَوْل المؤسّس : « لَكَمْ أصْبَحْت مِثْلنا يَا هَاء! لقَدْ مَسَخَنا العَالَم المجْهُول تمَامًا! » **(سعدي، 2018م، ص310)** وهَذا إنْ دَلّ علَى شَيء إنّمَا يَدلّ، علَى أنّ كُلّ إنْسَان فِي دَاخله نوَازع وبَذْرة شرّ، ومَا يُظْهرها ومَا يُنَمّيها حِين يَتَعَرّض الإنْسَان للظّلم والانْتِهاك يَلْجَأ لاسْتِخْدَامها للدّفاع عَنْ نَفْسه مُتّبعا غَريزته مِثْل مَا حَدَث مَعَ المنقّب حَيْث « واصَل حَسن أحْمَد طُومْباز قَائِلًا بِخزي مُؤْلم : - نَعَم يَا هَاء، أنْت هُو أنَا... ومِنْ دُون أنْ اعْرف السّبب ذَهَبت. كانَ اسْمها قَمَر. مَنَار هِي قمَر يَا هَاء وأنْت هُو أنَا. أصَابَني اكْتِئاب عَظيم وأصْبَحت كَائنا مَريضا وتَائِها.» **(سعدي، 2018م، ص308)** فَالمؤلّف "سَعْدي" هُنا ودّ إثْبَات أنّ هُناك فِي شَخْصيّة الإنْسَان مَا يُوَازيها بالمقَابل أوْ تَكُون بِمَثابة صُورة عَاكِسة لحَقِيقة

الكَائِن البَشَري فَكُلّ عَالَم لَابد ولَه عَالَم آخَر يُوازيه فِي مَكَان مَا خَارج حُدود تَوَاجده.

والهُجُوم عَلى مَمْلكة المأمُونة لَا يُمْكن أنْ يَكُون بِفِعْل شَخْص وَاحد، وإنّما هُو نَتيجة لمخطّطات مِن قبل أيَاد خَفيّة لَهَا أهْدَاف دُغْمَائية برَاغْمَاتية تجَاه المَمْلكة وحضَارَتها، إذْ يَقُول الرّاوي " أحْمَد طُومْباز" للمُنقّب ليَعْفو عَنْه « أنا يَا هَاء لسْت المؤسّس. المؤسّس الحَقيقي لَا أنَا أسْتَطِيع فِعْل شَيء ضِدّه ولَا أنْت. لَا أنَا أعْرِفه ولَا أنْت. لَا أدْرِي لَا اسْمه ولَا أيْن يَسْكن ولَا شَكْله ولَا إنْ كَان رَجلا أوْ امْرأة. لَا شَيء حَدَث فِي المَمْلَكة دُون مُوافقته. هُو مَنْ أرْسَلك إلَي أيضًا.» **(سعدي، 2018م، ص311)** وبالتّالي فمَا حَدَث فِي المَمْلكة والأشْخَاص الفَاعِلين والّذين اعْتَقد أنّهم الحَجر الأسَاس لارْتِكاب الجَريمة الأولَى ثمّ إدْخَال المَمْلكة فِي حَرْب ضَرُوس، لمْ يَكُونوا سوَى أحْجَار شطْرَنج يُحرّكها أشْخَاص بِمَا يَخْدم مَصَالحَهم الشّخْصِية ومِنْ بَيْنهم "نَازر" والمؤسّس "حَسن أحْمَد طُومْباز" وحتّى المنقّب" شِين هاء" الّذي وقَع بفخ الانْتِقام وقَام بقَتْل المؤسّس، والدّليل من الرّواية« لمْ يَعد أحْمد طُومباز قَادِرًا فِي النّهاية عَلى الكلَام. لقدْ اسْتَغرقه الوَجع أكْثر مِنْ أيّ شَيء آخَر. أحسّ بنَفْسه يَقع علَى الأرْض وبأنّ هَاء أصَابه هَذِه المرّة فِي البَطْن.» **(سعدي، 2018م، ص315)** هُنا الكَاتِب أرَاد إيصَال فِكْرة أنّ "هَاء" صَار أحَد بَيَادق لُعْبة الشّطْرنج وتم اسْتِخْدامه مِثْله مِثْل "نَازر" و"حَسن" وبذَلك وصَل مُرْسل "نازر" لمبْتغاه لتَحويل كُلّ أفْراد المأمُونة لمجْرمين وزَرَع الشّر بَيْنهم، وهَكَذا أفَل نَجْم مَمْلكة المأمُونة وزَمن السّؤدد. ليَخْتتم الكَاتب عَمَله بِتَصْويره للوَضْع الّذي آلَت إليْه المأمُونة مِنْ فَوْضَى وصِرَاعَات.

الخاتمة:

ومِنْ هُنا أمْكن تَحْدِيد أهمّ النّتائج الّتي خَلُص إلَيْها البَحْث مِنْ خِلَال هَذِه المقَاربة وتَتمثّل فِيمَايلي:

- أنّ النّص الأدَبي عُمُوما والرّواية خُصُوصًا تتَضمّن رُؤية الكَاتِب ومَوْقفه، فيتَبنّى الإيدْيُولوجيا عَبْر بثّهَا لَدَى فِئَات مُعيّنة أوْ طَبَقات فِي دَلَالَات جَدِيدة.

- لَا وُجُود لرِوَاية دُون إيدْيُولوجيا فَكُلّ عَمَل أدَبيّ فنّي لَا يسْتَقيم دُون أدْلَجَة.

- أنّ الرّوائي "سَعْدي" فِي عَمَله الإبْدَاعِي (الآدميّون) انْتَهَج الإيدْيُولوجيا المِثَالية فقَدْ أرَاد تَأسِيس عَالَم افْتِرَاضي مِثَالي خيّر طُوبَاوي مِنْ خِلَال مَلْكة المأمُونة قَبْل أفُولهَا، ليَعْجَز فِي نِهَاية المَطَاف عَن تَحْقيق مُرَاده، ويَنْحُو فِي ذَلك منْحى واقِعي ديسْتُوبي، فهَذَا العَمَل بَات يَتَأرْجَح بَيْن الرُؤيا والتّصوّرات والإيدْيُولوجيا، وهَذَا مَا يُمْكن اعْتِباره بَعيدًا نوْعًا مَا عَن الإيدْيُولوجيا، ولَكِن الكَاتِب مَعْرُوف عَنْه واقِعيته وهذِه إيديولوجيته، لكنّه هُنا يَتبنّى المِثالية ثمّ يَحِيد عَنَها ليَعُود إلَى وَاقِعيته؛ بمَعْنى أنّه بَقي وفِيّا لإيدْيُولوجيته.

- في نِهَاية العَمَل يُدْرك الكَاتِب اسْتِحَالة هذه المثالية ويعُود ليتَمَسّك بإيدْيُولوجيته الأولَى لأنّ كتَابته لِهَذه الرّواية كَانَت دَوَافعها تَحْقِيقا لِحُلم قَدِيم في الطّفولة بأنْ يَكُون مُفَتش شُرْطة... فسَعَى لهَذا الشّكْل وخَرَج عَن نَمط كِتَابته المُعْتاد ليَكْتب فِي قَالب فَانْتازي غَرائبي أكْثر مِنْه فَلْسَفي، ورغْم أنّه نَجَح فِي اقْنَاع المُتلقي بهَذا؛ إلّا أنّه فِي نِهَاية الرّواية لا يسْتطيع تقبل المثالية ويعُود لوَاقعيته المَاديّة.

- رِوَاية (الآدَميّون) حُبْلَى بالمعَانِي الدّفِينة والمتَعدّدة والقَابِعَة وَرَاءَ البُنَى اللغَويّة والقَابلة للتّأويل والقِرَاءة، وَذَلِك بمُقَارَبتها مِنْ عدّة زَوَايا أخْرَى، يُمْكن أن تَكُون هَذِه الدّرَاسَة قَدْ غَفَلت عَن التّطرّق إلَيها؛ لَاسِيمَا وَأنَّ الروَايَة كَمَا قُلْنا سَابِقا تَطْرَح جَانِب طُوبَاوي وديسْتُوبي.

الإحالات والمراجع:

1. إبراهيم سعدي. (2018م). الآدميون (المجلد ط1). بيروت، الجزائر: منشورات الاختلاف، ضفاف.
2. إبراهيم عباس. (2014م). الرواية المغاربية ، تشكل النّص السرديفي ضوء البعد الإيديولوجي (المجلد ط1). الجزائر: دار كوكب العلوم.
3. أحمد حمدي. (2001). جذور الخطاب الإيديولوجي الجزائري،معالم (المجلد (د. ط)). الجزائر: دار القصبة.
4. انغليز ديقيد، و هيوسون جون. (2013). مدخل إلى سوسيولوجيا الثقافة (المجلد ط1). (لما نصير، المترجمون) الدوحة، قطر: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
5. تيري ايجلتون. (1992م). النقد والإيديولوجية (المجلد (د. ط)). (فخري صالح، المترجمون) عمان، الأردن: المكتبة الوطنية.
6. حميد لحمداني. (1990م). النقد الروائي والإيديولوجيا، من سوسيولوجيا الرواية إلى سوسيولوجيا النّص الروائي (المجلد ط1). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.
7. سعيد علوش. (1981م). الرواية والإيديولوجيا في المغرب العربي1960- 1970م (المجلد ط1). بيروت، لبنان: دار الكلمة.
8. سيزا قاسم. (2004م). بناء الرواية، دراسة مقارنة في ثلاثية نجيب محفوظ (المجلد (د. ط)). القاهرة، مصر: مكتبة الأسرة.
9. شكري عزيز ماضي. (2005م). في نظرية الأدب (المجلد ط1). بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.
10. عبد الرحمان خليفة، و محمد إسماعيل فضل الله. (2005م). الإيديولوجيا وفلسفة الحضارة (المجلد ط1). الإسكندرية، مصر: مكتبة بستان المعرفة.
11. عمار بن لحسن. (2016). الرواية والإيديولوجيا (المجلد ط2). مراكش، المغرب: الملتقى.
12. هادي شعلان البطحاوي. (2016م). مرجعيات الفكر السردي الحديث (المجلد ط1). عمان، الأردن: دار الرضوان.